أطلق المؤرخون المسلمون على الحملات الدفاعية التي قام بها النبي على أطراف المدينة أسم الغزوات. والحقيقة أن هذا الأمر شرعنّة خطيرة لشيء لم يأمر به النبي، ولم يقم به حتى، فالغزو مفهوم قبلي، أراد الإسلام إيقافه وإزاحته من السلوك اليومي للعرب. أما الجهاد المختلف عن الغزو فهو على النقيض منه إبتكار قرآني أريد به القتال الشرعي تحت راية قيادة صالحة في أوقات محددة، فضلاً عن ذلك فله أشكال متعددة مثل جهاد النفس والكلمة في وجوه الطغاة، بمعنى أن الجهاد بمفهومه القرآني ليس قتالاً فقط، وهذا ما إستبعدته الروايات الخاصة بالقتال التي عملت على عسكرة المجتمع وترسيخ مفاهيم البداوة التي عمل النبي على التخفيف من وطأتها الإجتماعية. ومهما يكن من أمر فأن الحملات العسكرية التي كان محيط المدينة المنورة مسرحًا لها فقد كانت موجهة ضد القبائل العربية البدوية لتأديبها؛ نتيجة لقيامها بالتعدي على الحريم السياسي للدولة الناشئة، بتحريض من الأرستقراطية المكية التي فقدت ثقلها السياسي– الإجتماعي، بعد أن أسس النبي كيانًا سياسيًا للمسلمين في المدينة، وشعرت تلك الأرستقراطية بخطر وجودي وشيك قد يطوي تاريخها إلى الأبد؛ لذا حرضت البدو، فكان رد فعل النبي دفاعيًا وليس غزوًا قبليًا كما صوره المؤرخون العرب والمسلمون كما سيتضح.

وللحق أن الإسلام لم يشرع الغزو بالمرة؛ لأنه من قيم البداوة وليس من الحضارة والمدنية في شيء، فالإسلام كما هو واضح جاء ليبني مجتمع مسلم على قادر على إستيعاب مشاكل الحياة، وحل تلك التي خلفتها المجتمعات البدوية بالذات قيم العصبية وأستخدام السلاح والعنف غير المبرر، فضلاً عن أن المجتع العربي لم يكن راقيًا على وفق سلم الرقي الإنساني، ليقاتل من أجل الحق، ومن يقرأ صفحات التاريخ يفهم هذا الأمر بسهولة شديدة، بمعنى أن مجتمع يحمل غريزة بشرية بدوية في الغالب غير مهذبة ليس مؤهلاً أن يكون غازيًا على وفق النهج الصحيح.

لكن وعلى النقيض من التوجه القرآني فإن السياسة أدت دورًا كبيرًا في إركاز الجهاد وعدّه أصلاً من أصول الدين في حين أنه فرع، إذ ركنوا إلى تفسيرات قرآنية ممزوجة بالسياسة بدل العلم، فمثلاً أعتمدوا على تفسير النص الآتي: **{ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا}** على أنه أمر القتال، وكأن الله أشار بأستخدام سلاح ما للمنازلة، والحال أن المقصود بالآية هو إستعمال القرآن الكريم للمحاجة الفكرية. أي أن الإسلام ترك للناس حرية إختيار المعتقد دون جبر الناس عليه؛ فالأمر لا

يمكن فرضه بالقوة ولا يمكن الإغارة على المحيط الخارجي للمدينة المنورة؛ من أجل أرهاب القبائل فهذا الأمر ممنوع وغير عقلاني، ولا يجعل ثمة مائز لدولة النبي عن السلوك البدوي، لذا فإن حملات النبي على القبائل الذكورة كانت تأديبية كما مر قبلاً.

وثمة علّة سياسية في تسميتها بالغزوات، إذ أراد الحكام بعد النبي شرعنّة قيامهم بالفتوح العربية وخروجهم من شبه جزيرة العرب نحو الاقاليم والمجاورة والدول الأخرى، فخلطوا الأمر على الناس وعدّو أن الغزو جهادًا، ونسبوا للنبي القيام بعدد منها، منها فتح مكة في سنة(8هـ/629م)، فضلاً عن الإدعاء بأن معركة مؤتة وإرسال النبي للجيش الإسلامي على أنه سلوك عسكري لفتح الجغرافية المذكورة ونشر الإسلام فيها. وفي الحقيقة أن فتح مكة كان من أجل كبح جماح أبي سفيان وأعوانه ومنعهم من التحريض على الدولة الإسلامية الناشئة، والسبب في إرسال النبي للمسلمين إلى مؤتة في نفس السنة هو الدفاع عن الحريم السياسي للدولة، بعد إقدام شرحبيل بن عمر الغسّاني والي البلقاء، على قتل الحارث بن عمير الأزدي موفد النبي إلى قيصر الروم. بمعنى أن الأمر بخروج الجيش هو لردع كل مَنْ تسول له نفسه الاعتداء على حرم الدولة الجديدة، وليس المقصود منه غزو دولة كبيرة عمرها الآف السنين، وتملك أساطيل بحرية ضخمة، وجيش عرمرم، في حملة واحدة وبثلاثة الآف جندي بحسب الرواية الرسمية!!.

وعلى أيّة حال شهدت حياة النبي العديد من الحملات العسكرية على المناطق القريبة من المدينة المنورة منها: حملته على ودان أو كما تسمى الأبواء، وكانت على رأس السنة الأولى من الهجرة، وقيل هي أول حملة خرج بها النبي مع ستين رجلاً من المهاجرين فقط ؛ من أجل التعرض لقافلة قريش، والسيطرة عليها. وأيضًا سرية عبيدة بن الحارث التي أرسلت بعد أشهر قليلة من الحملة الأولى في بداية السنة الثانية من الهجرة المباركة، وتكونت السرية من 60– 80 رجلاً، ولم يحصل فيها أيّ إشتباك، وقيل أن سعد بن أبي وقاص رمى سهمًا، فكان أول سهم رمي في الإسلام. وكذا حملة سرية حمزة بن عبد المطلب بثلاثين مقاتلاً، أعترضت قافلة لقريش، كان عليها أبي جهل، فاصطفوا للقتال ثم توسط بينهم رجلاً حليفًا للفريقين يدعى مجدي بن عمر الجهني، فحال دون القتال بينهما. وكذا سرية سعد بن أبي وقاص في 8–20 رجلاً، خرجت لأعتراض قافلة لقريش، لكن الأخيرة فرّت فلم يتمكنوا من اللحق بها. كما قيل أن النبي خرج بحملة على بواط في السنة الثانية أيضًا على رأس

200 صحابي لأعتراض قافلة لقريش، قيل أن عليها أمية بن خلف الجمحي، ولم يحصل فيها أي شيء، وعاد النبي إلى المدينة.

وأيضا ثمة حملة أخرى حصلت في نفس السنة وهي العُشيّرة حيث خرج النبي على رأس 150-200 مقاتل من صحابته، وأتجه للناحية المذكورة والواقعة بين مكة والمدينة؛ لغرض ملاحقة قافلة قرشية قادمة من بلاد الشام، ولم يتمكن النبي وصحابته من اللحاق بها. وثمة حملة أخرى كانت في سفوان وسميت غزوة بدر الأولى، وكانت بعد عشرة أيام من الحملة السابقة، إذ هاجم كرز بن جابر الفهري مراعي المدينة، فخرج له النبي لكن لم يتمكن من اللحوق به.

والواقع أن عدة أمور تلحظ على مجمل هذه الحملات منها: أن الغرض منها هو التعرض لقوافل قريش فهو غير صحيح بالمرة، لأنه أسلوب لصوصي، ولا يجعل مائز بين المسلمين والبدو، وهذا السلوك بعيد كل البعد عن تفكير النبي وأساليبه، فهذا الأسلوب حتمًا يركز فهمًا خاطئًا في أذهان الناس عن مشروعية إستعمال أي وسيلة كانت لتحقيق المبتغى، وحتى وإن كانت غير مشروعة، وهذا ما حاول الإسلام إزالته من العقل العربي، بمعنى أن النبي من غير الممكن أن يحاول تحقيق أهدافه بإخافة قريش بالسلوك اللصوصي، ومحاولة إتباع نفس الأساليب البدوية الممنوعة في الإسلام.

وثمة أمر وهو أن عدد مقاتليها كان بضع عشرات فقط، وأستهدفت القوافل المكية الكبيرة، مما يعني أن النبي لم يكن قصد غزوًا بالمعنى المُراد إركازه، أي أنه لم يرد السيطرة والفتح والقتل، بمعنى أنه أراد يشعر القرشيين من مكة بقوة المسلمين، وأستعدادهم للحرب من أجل بناء كيانهم الإسلامي الذي تحملوا من أجله العناء والغربة، وإلاّ أنى لأعداد قليلة مواجهة العدد الكبير، ولم يكن ثمة أمر صدر للجهاد العسكري ضد الكافرين.

وثمة أمر يرصد وهو أن النبي أعتمد على ثلة من أصحابه وهو المهاجرون في قِبال مرتزقة كثيرون كانوا في حماية القوافل التجارية(**إن إفترضنا صحة خروج النبي لأعتراض قوافلهم فهي حتمًا كبيرة ويحرسها عدد كبير من الجنود؛ لذا كيف لحملات صغيرة أن تخيفهم!**). وعلى كل حال فثمة علّة لم يقف عليها المؤرخون في سبب إعتماد على المهاجرين دون غيرهم في حملاته، وهذا ما شكل تناقضًا مع نص عالجناه في محاضرة سابقة، إذ ورد فيه أن النبي رد على أهل المدينة في بيعة العقبة الثانية (سنة 12 للبعثة) ذلك عندما خافوا أن يتركهم إذا ما أنتصر فقال لهم:" **بل الهدم الهدم**". أي

أنه مستعد للتضحية من أجلهم، وهذا الأمر يعني مشاركتهم، فمن باب أوْلى كان على النبي أن يخرج الأنصار معه في الحرب، لكن الأقلام الأموية وعلى الرغم من خروج النبي بالمهاجرين لأسباب غير ما ذكروها، إلاّ أن أقلامهم أبّت إلاّ أن تصور النبي "**وحاشاه**" بأنه رجل قبليًا إستهدف من قيادته للمهجارين حصرًا إسترداد أموالهم المنهوبة من قريش، وكأنه يبحث عن ثأر قبلي مع قومه، في سلوك واضح من أجل إركاز الغزو وشرعنته في العقل العربي في ضوء نسبه للنبي.

وفي الحقيقة أن أسباب الإتكاء على المهاجرين في الحملات بشكل عام تمكن في رغبة النبي جعلهم في بداية الهجرة مادة لحربه؛ بسبب معرفتهم التامة بقريش، فهم رجال من ذوي الهمة والشدة ومعنيين بالدرجة الأولى بالأمر، أكثر من المدنيين، فهم أول من آمن بالنبي. كما يُفهم أن السبب في ذلك هو الوضع النفسي للمهاجرين الذين ذاقوا على يد كبار قريش الويل، ونالهم منهم عذاب أليم، بمعنى أن خروج المهاجرين لأقرانهم من قريش سيكون معسكر في قِبال معسكر، مما سيحمل رمزية تتضح في إستعراض تاريخي يفهم منه حتمية المواجهة بين الفريقين، فريق مؤمن تعذب من أجل الإسلام، وفريق معُذِب لهم من أجل مصالحه الخاصة.

وربما أراد النبي أن توّلد المشاركة للمهاجرين في الحملات العسكرية الأولى ضد قريش وأعوانها من القبائل المحيطة بالمدينة الشعور بالثقة بالنفس، فالمهاجرون يعيشون في وسط غريب متحضر نسبيًا بالنسبة لهم؛ لذا من الضروري أن يكون لدى المهاجرين الثقة بأنهم قادرين على أيّة حال بمضايقة قريش القبيلة الأكثر مالاً وقوة وقتذاك. وربما ثمة هدف آخر عند النبي وهو أن الحرب بين أبناء القبيلة الواحدة غالبًا ما تكون أقل ضراوة بفعل التقارب القبلي والنفسي، مما يجعل إحتمالية إنطفاء نائرتها بسرعة أكثر نسبيًا.

وربما لمس عدم إستعداد كامل من أهل المدينة، وعدم جهوزيتهم الكاملة للحرب، مما يوقعهم في إشكال شرعي إذا ما أمرهم النبي ويعصوه. وعلى أيّة حال كان ثمة خطر في وقوف قافلة قريش في مضارب بني ضمرة وهم قبائل بدوية تنصب العداء للنبي، فخرج لهم النبي من أجل التصدي لأي محاولة منهم، للإقلاق أمن المدينة وأمانها. فضلاً عن عدم رغبة النبي في زج الأنصار بحرب بعيدة عن مدينتهم التي تعهدوا بحماية النبي فيها، إضافة إلى أن لهم علاقات سياسية وإجتماعية مع مكة، لا يريد أن يصيبها ضرر بفعل مناصرتهم للنبي. أيضًا أن الأنصار قوم من أهل الدعة والرخاء، فهم

متنعمون وعاشوا حياة مرفهة، وربما لم تتوفر لديهم دوافع قوية تجعلهم ينخرطون في العمل العسكري الباكر، كما أن مساندة الأنصار للنبي في الوقت الباكر من الهجرة قد يؤلب العرب على المدينة المنورة، وهذا ما حدث بالفعل، إذ اصبحت المدينة لا تنام إلاّ والسلاح في أيدي رجالها، هذا فقط لأنهم آووا النبي وأصحابه، فكيف بهم إذا اشتركوا معهم في الحرب!!.

وعلى أيّة حال تبقى معركة بدر هي الأهم في الأمر إذ قيل أن السبب في ذلك هو أن النبي أراد ممارسة الضغط العسكري والإقتصادي على قريش، فحاول إعتراض قافلة قرشية بقيادة أبي سفيان، وقيل أنها كانت ألف بعير، يحمل تجارة ضخمة لغالبية رجال قريش ونسائها. وقيل أن النبي حرّض المسلمين على الإشتراك في الحرب عسى أن يأخذوا أموال قريش. وعلى الرغمن من تثاقل الناس، إلاّ انه تجمع للناس(313) رجلاً ليس فيهم إلاّ فارسين، وقليل من السيوف، إذ كان أغلب المقاتلين لا يحملون سوى العصي.

وفي الحقيقة أن النبي لم يخرج للسيطرة على القافلة؛ لأنه في الواقع لم يعلم بها، إذ عمل القرشيون على الوصول إلى مكة بسريّة تامة، ولم يرى جيشهم إلاّ الفلاحين فهم مَنْ أخبر النبي بمقدم الكفار، وهذا الأمر يفنّد الإدعّاء السابق من أن النبي هاجم قريش ليستولي على القافلة المزعومة. وهذا الإدعاء الخطير لا يختلف من حيث الأسباب عن مدعى المؤرخين في الحملات السابقة. وقيل أن أبو سفيان تمكن من الإفلات بالقافلة المزعومة، لكن إصرار زعماء قريش وحقدهم على النبي ورغبتهم في القضاء على الإسلام منعهم من العودة، فقرروا أن يهاجموا المدينة بحسب الرواية الرسمية. وعلى أيّة حال فقد إصطدموا بجيش المسلمين في معركة إنتهت بهزيمتهم، وأفرز هذا الإنتصار نتائج مهمة من بينها تقوية مركز الرسول ودولته بإزاء المشركين، وبينت أن للمسلمين القدرة على الدفاع عن أنفسهم.